ذكرى الماضي

أو

سياحة في الجبل

وهي مقالات وجدانية خيالية

من قلم الشاعر الناثر

محمد صبري

طالب آداب بجامعة باريس

اعتنى بطبعها وجمعها

صالح شكري بجريدة المؤيد

لك يا محمد عند كل مؤدب ... قدر واني معجب بك راضي

أودعت قلبي بعد سلونه الهوى ... وأثرت أشواقي «بذكرى الماضي»

فرجعت ألتمس الصبا مسترجعاً ... وأشيد ما غادرت من انقاض

وكأنني بين الذي أمليته ... وكتبت بين جداول وغياض

فانشر بيانك في البلاد فانه ... شافي نفوس فى البلاد مراض

(أحمد الكاشف)

obeikandl.com

الكاتب أمام رأسى Replat و La Selle في جهة من جبال الدوفيني تدعى

Massif du Pelvoux

صورته وهو واقف على صخرة أمام جسر يدعي Le pont du Diable

كلمة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلاة على نبيه الكريم

أما بعد فيذكر القراء ما كان يخطه يراع الكاتب الفاضل محمد أفندي صبري من الرسائل ويبعث بها من أوربا الى الاهرام الغراء فينزلها الادباء من نفوسهم المنزلة اللائقة بها وقد كتب حديثاً بالمؤيد مقالات تحت عنوان « ذكرى الماضي » لم يقل اعجاب الناس بها عن اعجابهم بالاولى ولئن امتازت تلك بجزالتها وفخامة لفظها فان في هذه رقة في الاسلوب وسلاسة في العباره يمدهما كما في الاولى خيال راق ولغة صحيحة متخيرة مما دعاني الى تدوينها حتى لايحرم منها أديب والسلام

المقدمة

هذه المقالات ان هي الا قصيدة أنظمها من حيث لا أشعر من عامين أعقبا زورتى للجبل وهي بنت الساعة وان شئت فقل بنت أحد وعشرين عاما . بكر فتية فى نزعتها ولكنك تتسمع منها أنة الثاكل وزفرة الواله لانها مرآة نفس متألمة علم الله لولا اعتصامها باليقين لساقتنى الى ظلمات القبور

« محمد صبري »

obeikandl.com

الرسالة الأولى

وشعري ان طاب قبل الاوان فنيران قلبي أنضجنه
واني وان كنت ذاك الوليد فان الحوادث شيبنه

في هـذا اليوم من حياتي أقف وقفة السائح ببعض الطريق على ربوة عالية ناظراً بمنظار الذكرى الى الوراء فتتمثل لي هذه الآفاق الممتدة التي تسافر العين في أرجائها بين مروج خضراء وغياض مزدهرة وددت أن أعود اليها لو لم أكن مسوقا بقوة خفية الى غاية لا وزر منها ولا مفر

في هذا الزمان العصيب الذي تبدو فيه الدنيا للناظر أضيق من كفة الحابل بينما يقصف المدفع وتحصد الجماجم يحن فؤادي ويتلفت الى تلك الايام الخالية مستعرضا صور الماضي التي لم يبق منها الا خيال وظلال كظلال (السينما) تقيه لفحات هؤلاء الساعات اللواتي يصلينه الواحدة بعد الاخرى ناراً ذات لهب

ولست أريد بالماضى ذكر أخبار أمم الفرس والعرب واليونان السالفة. أو مدائن ممفيس وروميه وبابل البائدة. أو فتوحات الاسكندر أو وقائع نابليون. وانما أريد الماضي الذي خصصت به فهو على ضؤولته أرفع شأنا وأعلى ذكراً عندي من ماضى العالم فان للقلب ميزانا غير ميزان العقل ترجح فيه حصاة البيت الذي درجت فيه بالدرة الغالية

والماضي بعيد أمده. حوادثه متعددة. وأخباره كثيرة لايحيط بها الفكر دفعة واحدة وانما يختار منها مايشاء من بقعة مباركة يرتع فيها ومورد عذب يعل فيه وينهل. فسقيا ورعيا لتلك الايام القلائل التى قضيتها من سنتين خلتا فى جبال (الدوفيني) فهى خير من ألف شهر

سافرت الى فرنسا ونزلت بادئ الامر في ليون ومنها الى الضواحى كى لاتعلق بلسانى العجمة التى تتخلق من الاختلاط بابناء العربية هناك فاتفرغ لدرس أصول اللغة ومبادئها بعيداً من كل شاغل غير الجد والتحصيل وبعد شهر من الزمان أسعدني الحظ وأزمعت الاسرة التي كنت مقيما

بها وقتئذ رحلة الى الجبال التى تتصل بالالب فى الجنوب الشرقى من فرنسا وطلبت الى ان أصحبها فاهتبلت الفرصة وبت جذلان فرحا أترقب يوم الرحيل ترقب العليل زورة الطبيب

جاء اليوم الموعود فقصدنا (جرينوبل) فوصلنا مساء وأقمنا بها ليلة ولما كان الغد ذهبنا بكرة قبل أن تخرج الطير من أوكارها وأخذنا القطار ميممين (بورجوازن) فسلك بين جبلين وهذه أول مرة شهدت فيها الجبل وكانت نفسى تتوق اليه من زمن فشربت من السرور خمرة دب دبيبها فى كل مفصل وسرحت العين قائلا اليها « انك طالما رأيت وجه من لاأود لقاءه فتألمت تألمك اذا أصابك قذى وأبصرت المنكر فاشياً في الناس فوددت لو كف بصرك وعميت فيها أنذا أكافئك لتجملك بالصبر علي البلاء فتمتعي بهذا المنظر العجب الذي تحسدك عليه عيون خلق كثير واكشفي محاسن هذه الطبيعة البكر » وكان انوقت ضحى والشمس غير مشرقة فرميت ببصري الى ذروة الجبل فاذا ضباب كثيف عقد

عليها كالكلة (الناموسية) خرجت منه عروس النهار على مهل وظهرت على مسرح الوجود فتجلت آية الواحد الصمد واضمحل الشك وأخذ الثلج فى رؤوس الجبال يذوب ذوبان فؤاد المتيم العاشق عند رؤية حبيبته بعد هجر طويل وكان الماء يتدفق من علٍ أبيض كالفضة الناصعة وبينما أتأمل هذه المشاهد الجليلة الرائعة وقف الفاطرفي (برجوازن) فركبنا منها سيارة الى قرية صغيرة بالجبل تدعى (سان كريستوف) هى غايتنا ومستقرنا طاعنين في مسلك وعر وكان الطريق صاعداً محتفراً في الصخر ذا تعاريج شبيها بدرج البيت فلما بلغناها والقينا عصا التسيار ذكرت قول «جوتيي» مثل الجبل مثل الشاعر حاضر كغائب لاتحفل به عامة الناس ولا يعرفون غير السهل الذي يمشون فى مناكبه ومنه يرزقون ولو أنصفوا لادركوا ان الجبل هو الذى يظل السهل تحت جناحه ويصد عنه الحر والرياح الفاتكة ويرويه بالماء النمير الذي به يحيا ولولاه لما زكا نبته وترعرع بيننا تذوب ثلوجه كما تذوب مهجة الشاعر وتترقرق وهو يجود بقصائده السائرة فى المشرق والمغرب »

الرسالة الثانية

﴿ الفردوس الصغير ﴾

لعل أكبر باعث ساقنى الى انتجاع جبال (الدوفينى) هو حاجة فى النفس الى اعتزال هـذا العالم كانت تخلقت ونمت من كراهيتي للسواد الاعظم من المجتمع الانساني بعد مارأيت في مصر قوماً كسالى وجهلا مسيطراً وخلقاً ناقصاً وضحكا مبكياً وبكاء مضحكا والمرء ما بين هذا وذاك تذهب نفسه حسرات . وفي الغرب وهو مهـد المدنية وفيه شبت ودرجت حرصاً شديداً وطمعاً وراء الغاية وتزاحماً على الحياة أمات كل عاطفة شريفة ووجدان صميم كما قلت فى عالمه

وعالم قد جـد فى تسنمه غوارب الاطماع إثر مغنمه
يكاد أن يهلك فى تجشمه كالطفل يلقى كل شئ في فمه

ولقد شعرت عند ماهجم علي منظر الجبل رهبة تحدث احياناً عند رؤية الشئ الجليل كانما كان للجن فيه صيحة وصولة وما الرهبة الا سر من أسرار العظمة والخلود — والخضرة

لاتكسو (الدوفيني) الا قليلا فلا هو بالكاسي ولا هو بالعاري ولئن اشترك في صفة الجلال مع جبال (سويسرا) ولكنه أقل منها نضرة وجمالا

حقاً كل نعيم مصيره الي الزوال وكل نضارة عيش يفسدها الدهر والدنيا دول والا فأين مني هذا الزمن الذى كان واسطه من الدر ساطعة في عقد الازمنة وظلها خرز خسيس. لله ذاك العهد بـ (سان كريستوف) ما أبهجه وأنضره ما كدت ألتي رحلى في هذه القرية الصغيرة وأدرك فيها معنى جديداً من معاني الحياة حتى دعوتها بـ (الفردوس الصغير) فكان لهذا الاسم رنة في آذان أفراد الاسرة وعذوبة في أفواههم فذاع وجرى على ألسنة كثير من الزوار القادمين ولا يضم هذا الفردوس أكثر من عشرين منزلا أهله قليلون يجمعهم سبب من الود متين لاتحل عقدته فهم يتعاشرون ويتزاورون كأفراد أسرة واحدة لا يكدر صفاءهم حقد أو حسد أو تنافر أو غيرها من الصفات التى تنبت في كل بلد ناسه كثير تباينت طبائعهم واختلفت وجوه آمالهم

ومقاصدهم وتشعبت أهواؤهم . وكان به كثير من الماعز تقف بباب النزل (اللوكاندة) فيخرج اليها بعض الغانيات عند سماع رنين الاجراس الصغيرة المعلقة فى رقابها يداعبها تارة ويلاطفها أخرى ملقيات اليها فتيت خبز أوغيره وكان خدم النزل جميعاً أصحابه وهم أخوة من أبوين على رقة من السن أحسا بأن حياتهما آذنت بالزوال فارتأيا أن يقسما مالهما من مال مدخر ومتاع على بنيهما فتيين وثلاث عذارى فكأنما أراد الابناء أن يمتعوا أبويهم قبل أن يخطوا آخر خطوة بينهما وبين الموت برؤيتهم خافضين معاً فى ظل عيش ظليل . وكأن المال لم يقسم إذ ضم كل منهم ماخصه منه الى حصة الآخر واشتروا قطعة من الارض بنوا عليها هذا النزل فأخصب رزقهم وفتحت لهم أبواب جديدة من الخفض والدعة فكان كل نزيل يغتبط برؤيتهم على هذه الحال ويتمنى لهم تمام النعمة وزيادة التوفيق . ولقد كان يفد عليهم كل يوم عشرات من السياح غرباء يتعارفون في هذا المكان وهم بين ظاعن ومقيم — منظر يمثل لى صورة الحياة وليت شعرى

هل نحن الا سفر غرباء فى هـذه الدنيا يحل أحدنا والآخر يرحل ؟ وهل الحياة الا يوم أو بعض يوم يقلص كظل الطائر ؟ فلم لا نتآخي ويدرك الانسان أن بين الحرب والسلم مسافة ما بين الارض والسماء من شقاء ونعيم ؟ انه لو أنصف لتفيأ ظلال الثاني وانزوى من هجير الأول

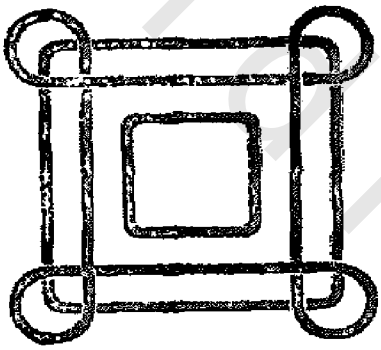

الرسالة الثالثة

﴿ مقبرة في الفردوس ﴾

يوجد امام مدخل النزل حانوت يرى الناظر من زجاجه الخارجى أصنافا كثيرة من الاقلام والكراريس وأدوات أخرى مدرسية لاطفال المكتب الذي فى القرية ومعظمها طال عليه القدم واستبد به البلى ويرى الداخل فيه عن يساره رجلا رث الهيئة دؤوبا يلف سجائر يحييه بأحسن تحية ويرحب به ترحيب الكريم بالضيف وأمامه دفتر مستطيل الشكل على مكتب صغير لعمل كتابي يخص البريد

والرجل تاجر صغير ارتأت الحكومة الفرنسية أن تنيط به أمر البريد فى القرية (سان كريستوف) وعينت له أجراً زهيداً من المال نظير عمله

ويوجد غربى النزل كنيسة يفصلها عنه قطعة أرض خلاء صغيرة مربعة الشكل وهذه الكنيسة تغلق جميع أيام

الاسبوع ولا يسمع قرع ناقوسها فى غير يوم الاحد الا اذا حدث حادث كموت أحد السكان — وأمامها سور من حائط ارتفع قليلا بحيث يطل الناظر من أعلاه على مقبرة فى داخله أخبرنا أهل القرية انه قبل وصولنا بأيام قلائل صعد أحد السياح الى قمة الجبل ومعه الدليل فزلت قدمه فهوي الى أسفل ودفن في هـذه المقبرة التى كانت مبعث آلامى وأشجاني

فليت شعري هل حرم على بنى الانسان أن لا ينعموا يوما واحداً بصفاء تام والا فما للدهر ينغص علينا عيشنا كلما فررنا من مصيبة تبعتنا أخت لها أكبر منها فأين ما يزعمونه من السعادة المتوهمة في صحراء هذا العالم القفر ؟ أفي هـذه الواحة الصغيرة التي نزلت بها أتفيأ ظلال الهناء يبعث الله لى ريحا سافية هوجاء من شقاء الدنيا تكدر صفو أيامى ؟

وقد حدثنى سائح أن مائة وخمسين أمثال هذا العائر الجد قضوا في عام واحد في جبال أوروبا كما مات كثير غيرهم من شهداء العلم وما الانسانية الا كشجر الكرم لا يمتد ولا

ينمو ويأتي بخير عميم الا اذا قلم فى كل عام . والموت أنواع تختلف مواقعها من النفس فالذى يموت غريقاً لا كالذي يموت بعلة ففى الحالة الثانية ربما وجد العزاء الى النفس سبيلا ولم تعمرها الوحشة وتظلمها كما فى الاولى سحابة من الحزن سوداء قاتمة وأنت أيها القاريء ألم تسمع ذات مرة أحد الناس ينعى فلانافيهب الآخر ويسأله عن سبب موته ونوعه أكان ذلك فجأة على صحة أو بعد مرض — مسكين هذا الانسان تجري عليه كل يوم الاقدار بحكمها وهو لا يكشف لها سراً ولا يعرف من أمرها شيئاً

وكانت عادتي فى الليالى المقمرة بعد تناول طعام العشاء الوقوف بجوار هذه المقبرة وكان بها شجرة ناضرة مورقة تلقى علي الصفائح فى ضوء القمر قطعاً من الظلال سوداء بين صغري وكبرى كبقايا شعرات سود فى رأس يشتعل شيباً — أيها الدفين — كلانا غريب وكل غريب للغريب نسيب ولقد غادرت أهلك وبيتك قاصداً الجبل وصعدت يصحبك الدليل فكمن لك الموت فى موضع قدمك التي زلت بك فعذرك

بين يعامه القدر وعذر الدليل أبين — وسيقول أهلك وصحبك وذووك انك ميت فى الغربة ويضاعف همهم من أجل ذلك فليتهم علموا أن الارض واحدة يسوّى البلى بين قاصيها ودانيها وما أنس لا أنس أخاً صغيراً كان لى دفنته بيدي في مكان قصي فى غير التربة الذي دفنت فيه أعز عزيز عليّ وسوف يلتقي من بالعراق ومن بالشام يوم نبعث أحياء — أيها الدفين — اذا صح ان الجبال تميد لموت عظيم من العظماء فى هذه الدنيا الفانية فأنت أحق بأن تميد لك جزعاً وتذوب ثلوجها حزناً وكمداً وأعز على بأن أقول انها لم ترع لك إلا ولا ذمة وغدرت بك حين أمنتها وأعطيت لها قيادك

وأنت أيها القمر السائح فى السموات العلى الذى لا يعثر ولا ينال منه الاين والاعياء — فى هذه الساعة ترسل على المقبرة أشعتك البيضاء بينا ترمى اليك ببصرها أم ثكلي وفتاة أرملة طاح القدر بواحدها . الآن فى ضيائك تعبس أزاهير الربي كما تعبس أزاهير آمالهم حتى اذا مضى ليل الحياة وجاء صبح الابدية ضحكت فاقتطفوها فرحين مستبشرين

الرسالة الرابعة

الجبل خير مأوى للشاعر في هذا الزمان الذي اشتد وعم الارض فيه طوفان من دم وهو ملجأ الحر يفر اليه من الظلم والاستبداد ولا يقف له أحد فيه على أثر قدم. طبيعته حرة فليس للانسان سلطان على مرعاه ومائه الذى يتدفق بقوة ويعدو فى تماريج بين الصخر عدو الظليم اذا أحس بصائد ولا أثر هناك للاشكال الهندسية من دوائر ومربعات من صنعة الانسان نراها فى كل متنزه وحديقة . وخير منها عندي ألف مرة هذه الخضرة التي تغطي بعض أما كنه وتسرح عليها طليقة وهذه الاشجار العظيمة القديمة العهد التى طالت فروعها فتخالها عند حفيفها تناجي السماء بأسرارها وقد ألقت تحتها ظلالا كبيرة تسر الناظرين

ولقد كنت كلما كررت الطرف فى المشاهد الجليلة أشعر في نفسى بالعظمة وحبها كأنما كنت سفير الانسانية أمثلها

أمام الطبيعة ولسان حالى ينطق بأن الانسان الضئيل عظيم مثلها فلقد بني في الدنيا وشيد وزخرف ونجد وسخر الحديد والنار فى الماء والهواء فأصبح بسلطان فكره في العالم نصف إله . ولقت أطلالت ثمت يوما على هوة عميقة فبصرت بأناس لاتكاد تبين للعين لو وقع على أحدهم حجر لابقاه مكانه لاحراك به فبعث ذلك المنظر على التفكير في أمر الانسان والمقادير فى هذا الوجود ونظمت هذه القصيدة

يدوس الفتى في سعيه النمل غافلا
كأن ليس يسعى في الثرى مثله النمل
ولو نطقت يوما لقالت له اتئد
وفي رأسك العينان والباصر العقل
اذا كنت تسعى للمعاش فكلنا
خلقنا له والارض يملكها الكل
وهذى القصور الشم ان تفخروا بها
فما لكمو فى حسن تنظيمها فضل

لنا قبلكم عش يحار لصنعه
مهندسكم لولا التعصب والجهل
وفي أزل الدهر القديم خيامكم
وأكواخكم عن صدقنا شاهد عدل
ولو ان فيكم من أطل من الذرى
ذرى جبل نحو السماء العلا يعلو
وشاهد بالتحديق خلقا كثيرة
تروح وتغدو ماينين لها شكل
لكان بها مستهتراً غير حافل
كما استحقرت فى عينه هذه النمل
فلا تشتكوا ظلم المقادير انها
تدوس كما دستم فما يحسن العذل
اذا لم ترع سمعاً اليكم وانتمو
مساكين لاحول لديكم ولا طول
فليس لكم غير الصدى من مجاوب
فنى سمعكم وقر المغفل من قبل

ومن أحسن المناظر التى لايمحى أثرها من فؤادي فتاة آية فى الجمال كانت واقفة بباب خص بالجبل كالعش المهجور فلما آنستني دخلت فى كناسها وتركتني بعد أن أوقعتنى فى شركها وما كان أجملها على فقرها بل لقد كان الفقر يزيدها في عينى جمالا وسيان وهي ساكنة قلبي أن تسكن بعدئذ القصر أو الكوخ وتكتسى القطن أو الحرير بعد مالبست من الجمال أحسن حلة وكانت شغل فؤادي أياما معدودات حتى كدت أنسى وقتئذ من أجلها كل شيء

بالذي ان حجب الشمس تنيرين الظلاما
والذي ألهم عجـ ـم الطير في الايك الغراما
والذي حمـل أروا ح الصبا عنا السلاما
بت من من حبيك لا أهوى شرابا أو طعاما

وماأنس م الاشياء لاأنس شجرة مر بها سائح فاحتفر اسمه على قشرها كأنما أراد أن يخبرنى أنه مر قبلي بهذا المكان فهل علم أن اسمه سيمحي وأن هذه الشجرة التى تشبه الدنيا ربما اقتلعتها ريح صرصر أو يبست فجعلها الحطاب بلا

رحمة حصيداً كأن لم تغن بالامس ؟ يسجل الانسان اسمه على الورق والحديد والخشب والصخر والزجاج طمعاً في الشهرة — أيتها الشهرة انى أعلم علم اليقين انه لولا ولع الناس بك لما قام بنيان هذا العالم ولا تقدم المجتمع الانسانى ولكنك باطلة غرارة كذلك الصائد الذى يحدث بغابته ضجة فى الماء فيحسبها السمك حادثة من احداه فيحوم حولها — ولقد كنت أنقش اسمى مثل هذا السائح على الشجر بحديقة المدرسة أيام الطفولة فهل راجع الى نعيم ذاك العهد ؟

وقالوا يعود الماء في النهر بعد ما
عفت منه آثار وجفت مشارعه
فقلت الى أن يرجع الماء ثانياً
ويعشب شطاه تموت ضفادعه

الرسالة الخامسة

الفردوس الضائع

نزل القرآن الكريم وكله تذكرة وحوادث وعبر لينتفع به العرب يعرفوا خالقهم فيؤمنوا به فكان أكبر حجة يبرزها اليهم ودليل يصدع به ظلم الشك أن يدلهم على جمال الكون الذي صنعه ويأمرهم بالنظر اليه وما أراد الخالق سبحانه بقسمه بالشمس وضحاها ونحوهما الالفت خلقه الى ما أبدعه وحضهم على الكشف وتفهم دقة صنعه في أشياء يحسوها حقها كالتين والزيتون (شجرها) فاعرضوا عنها ولم ينزلوها من نفوسهم المنزلة اللائقة بها. فمن شاء منا أن يعبد الله عبادة من يعرفه ويخلص له الدين وجب عليه أن يقلب طرفه في هذا الوجود وينظر في جمال الطبيعه فهى معجزة بينة كالصبح لذي عينين فى كل عصر ولكل جيل. فليت شعراء العربيه

سلكوا المنهج الذي سلكه شعراء الافرنج قبلهم وحببوا الطبيعة الى الناس فنالوا أحسن الجزاء . أولئك هم الشعراء الذين لا يعنيهم الله بقوله (والشعراء يتبعهم الغاوون) وهم هم الذين يخاطبهم شوقى بقوله « أنتم الناس أيها الشعراء »

على ان من يتصفح شعر العرب يجدهم شاعرين بشيء من روعتها وجمالها ولكنهم لم يحلوها مكانتها فقالوا أيام فلان كالربيع ... وهو كالبحر .... أو كالجبل .... أو كالنجم ... وحديثه كالزهر .... الخ ولو انهم عكسوا وأطنبوا فى مدح الطبيعة لا الممدوح فقالوا مثلا « الجبل جليل كهوميروس .... » لاصاب قولهم من نفوسنا مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

هذه كلمة واحدة أقولها الآن قبل أن انتهى في هذا المقال من ذكرى أيامى فى الجبل ، هذه الايام التى لا أجد أحسن من قول الطائي فيها « أأيامنا ما كنت الا مواهبا »

ولقد كنت أشعر وأنا فى احضان الطبيعة بين سمعها وبصرها باني طفلها وهي كالأم الحنون تتعهدني وتغرس في نفسي أطيب الفضائل وفى فؤادى أشرف العواطف وأسماها

اذا شكوت أو بكيت ولطالما بكى الشعراء غنتني بغريدة أطيارها وخرير مياهها وحفيف أشجارها فطربت وانتقلت من اليقظة الى الحلم للذيذ وما أكثر احلامي — الآن أذكر كهفا على قمة الجبل نزلت به ظهر يوم محرق شمسه وكان مظلماً لا يدخله الا نور ضئيل والرياح حوله متذئبة عاوية فاعتزلت العالم فيه ساعة من الزمان لا أنساها أبد الدهر — الآن أذكر (سان كريستوف) ومقبرتها ونزلها ومعزها وشجرها وناسها ولو نطقت لكان مقدار الحنين واحداً عند كل منها — أذكر هذه الجزيرة الصغيرة التي أحببتها كما أحب بلادي وقد أضطرني الزمن الى مغادرتها كأنه أسمعني بهاز أرة الاسد فرجعت بسفينتي أمخر في عباب العالم المضطرب بين ريح عاصفة من رياح المصائب وضجيج مدائن وأمواج ناس أكافحها — ليست (سان كريستوف) طللا باليا فأبكيها وانما أندب عهدي الذي أبلاه مر الغداة وكر العشي

قفا نبك من ذكري حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها

لما نسجتها من جنوب وشمأل

لا أمل ذكر هذين البيتين صباح مساء فاني أحب هذا التحديد الذي لا يلتفت اليه أحد وحسب امرىء القيس انه صاحبهما وهو بهما وحدهما أشعر الشعراء عندي اذ ينطوي تحتهما حب صادق وحقيقه باهرة هما خير سجايا الشاعر والناس

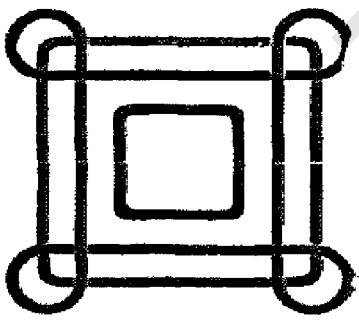

الرسالة السادسة

رأينا اتماما للفائدة ان نأتي بمقال كتبه الكاتب وهو علي ظهر الباخرة فى عرض البحر لاول مرة ومنه ومما تقدم يمكن للقارىء ان يدرك شعور نفسيته امام أجل مناظر الطبيعة

في الطريق

قال الكاظمي يصف الموج

يطالعنا من كل فج كأنه
جبال شروى أصبحت تتقلع

وقال البحترى

ألست ترى مد الفرات كأنه
جبال شروري جئن فى البحر عوما

أحسن الاول في الاخذ وأصاب كلاهما شاكلة المرمى فى دقة التشبيه وحسن العبارة في ذلك الموج الذي يعتلي بينا يلاطم بعضه بعضاً ثم يهوي في عرض البحر شعاعا كما تصطدم

الحجج الوهن والرياح زئير فى جوانبه كأنما (به الذئب يعوي كالخليع المعيل)

الا ان للبحر جلالا وروعة تحدث فى النفس أثراً جليلا وشعوراً فياضاً وهو مثل الكتاب معما استدلوا عليه بالعنوان فلا يدركه الا من يفضه فضاً و يقلب في صحائفه بصره وبصيرته

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا

وكأنى ساعة أرمى عينى فيه بعد فراق ذلك المصر أطالع في سفر جليل لشاعر محل كابن الرومي بعد ابن الفارض أو البارودي بعد الساعاتي . ولئن كانت نفسي تحن الى من أساء اليها فكيف بالوكر الذي فيه درجت والعش الذي منه خرجت

حنينها وما اشتكت لغوبا يشهد ان قد فارقت حبيباً

ان الغريب يسعد الغريبا

لله ما أقسى فؤاد النوى المتحجر وما أروع وأبهج زمانا عقدنا جناحي ليله ونهاره بلذائذ العيش ووصلنا غبوق السرور بصبوحه ورعينا الكوكب حتي هجع السامر

بنفسي تلك المغاني المأهولة والمنازل المعمورة من قوى

وأحبائي أما الوداع فقد كاد من أجلها يشق الجيوبا وينقض من الصبر سرادقا مضروبا

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وما غراب البين الا قاطر مرتحل

ولم أر داراً بكيناها على القرب والبعد الا مصر فان كنت في الثانية أبكى من جوى الفرقة وقد زودني الدهر مازود الضبا فقد بكيت في الاولى على حظها المنكود وقد انطفأ سراج عزها الوهاج وعاد الفصيح منا كاللجلاج

حقاً ان الدهر ليذهب بطارف أسباب لرخاء وتليدها كما يذهب بقديم المنى وجديدها وكلما أشرق فى سمائنا نجم سعد أطلع فى جوانبه للنحس خمساً فتجرعنا سم الحياة كأساً فكأساً

مضى بها مامضى من عقل شاربها
وفى الزجاجة باق يطلب الباقى

أقلعت بنا الباخرة الانكليزية (مرمورا) فى منتصف هذا الشهر وكان برفقتي كثير من وجهاء المصريين وفضلائهم

وفي جملتهم حضرة الشاب المهذب حسن افندي نصيف الذاهب الى لندره للدرس والتحصيل بها فكنا كانما نحن نزول فى مدينة فصلت من الشاطىء ومخرت فى العباب وفي اليوم الثامن عشر أوقت بنا الجارية فى مضيق (مسينى) وقد تنفس الصبح والجو غير صحو فأمطرنا غمام مربد طبقات بعضها فوق بعض وما لبث الغيم ان تفتق وهتكت أستاره الشمس وأرسلت أشعتها الذهبية على جانبي البوغاز فتجلى لنا فى رونق الضحى منظر جبلين فذكرت مأثور الشاعر العربي وهو يقول (أياجبلي نعمان ..) فاهتبلت الفرصة وطبت نفساً (بالمنظار) من رؤية خضرة جللت أعاليهما وطرائق قدد متشعبة بين سماطين من الشجر ومنازل كالحمائم البيض جئن ليشربن من مشرع الماء فعكفن على جوانبه وقد بنيت من الحجر الابيض بسقوف من الطوب الاحمر حولتها لنا (كيمياء) الطبيعة بنور الشمس ذهباً صقيلا ولما مررنا بجبل (استرمبولى) شهدنا عين ماشهدناه أول مرة الا ان البحر سكنت ثائرته والحمد لله فلا نكباء زعزع ولا عاتية

صرصر فسرحت الناظر فاذا الكون وقد أشرقت أساريره واذا السماء صافية الاديم لاتحلب لاشداقها وما أوشك ميزان النهار أن يميل ويرخي الليل سدوله حتى سمعنا قرع اجراس نخيل الينا ان صاعقة نزلت علينا من السماء أوالصور وقد نفخ فيه . أو ان الساعة قد اقتربت فحضر المقدار واضطرب الفلك الدوار وراكب البحر كما قال صاحب كليلة ودمنة ان سلم من الغرق لايسلم من المخاوف أو كراكب الاسد دائما يتهيبه فهو عليه أجبن من صافر فاذا خدم الباخرة ومعظمهم من الهنود تجمعوا زمراً على أتم نظام وقد أخذ كل منهم أهبته فسألنا فقيل انها (مناورة) فمن ماسك بالخرطوم مصوباً ومن متسلق على قضبان حديدية من الطبقة السفلى الى العليا في غاية من السرعة كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة . والانكليز لاغرابة اذا كانوا ملوك البحار غير مدافع فلقد كنت أشاهد بعيني رأسي الكهل منهم طوراً يدور في مطلع الفجر ماشياً (ببجامته) التي تستعمل كالجلابية عندنا حافي القدم مكشوف الراس كأنه موكل بفضاء الارض يذرعه

وطوراً يسير على الاربع وابناؤه يتداولونه بالارجل واخرى يثب على الحبل امامهم قلت فى نفسي بمثل هذا ترقي الشعوب وتحتال اذا جدجدها فان في رياضة الجسم مافيه من اكتساب صحة وعافية كما كان شأن الرومانيين من قبل وقد دوخوا البلاد وفتحوا الممالك وبنوا لهم على اكتاف الكواكب دوراً والآن لما ترسو الباخرة بعد في (مرسيليا) حتي ادخل في زمرة ذلك العالم الحديدي الذي ركب من الامور كل صعب جموح فذلله وتمثل بقول المتنبي

ذريني أنل ما لا ينال من العلا

فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل